بناء المعاني في الحديث النبوي

إعداد

أ.سمير عبد الحميد دسوقى

باحث دكتوراة في قسم اللغة العربية

كلية الآداب – جامعة دمنهور

أ.د. سلامة داوود

أ.د.إيمان فؤاد بركات محمد

وكيل الكلية للدراسات العليا والبحوث

رئيس قسم اللغة العربية – كلية الآداب– جامعة دمنهور

دورية الانسانيات - كلية الاداب - جامعه دمنهور -

العدد (65)- الجزء الأول -2025

تقديـــمـ : ما يزال الحديث النبوي الشريف نبعًا ثريًا ، ومعينًا غنيًا ، وما يزال البحث فيه في حاجة إلى جهد كبير؛ وبناء المعاني خير مثال على ذلك، فلا يخفى على دارس البلاغة النبوية أن الأساليب النبوية في الحديث النبوي الشريف ، قد اختلفت اختلافًا كبيرًا من العهد المكي إلى العهد المدني، ومع شدة الحاجة لدراسة الحديث النبوي الشريف ،من هذه الزاوية ؛ إلا إنه لم توجد دراسة –حسب علمي –تقوم على التمييز بين المكي والمدني في الحديث النبوي الشريف، من ناحية الأساليب البيانية، والأغراض البلاغية ،والتقديم والتأخير بين الجمل، والإفراد والجمع ، واستعمال وسائل غير لفظية تحقق المعنى المقصود لصاحب الرسالة ﷺ ، وبناء معنى على معنى ، و ربط معنى بمعنى ، وهكذا

وتتمثل القيمة البلاغية للبحث في التمييز بين المكي والمدني من الحديث النبوي، الذي يُبنى في الأساس على اختلاف الأساليب والمعاني، تبعًا لاختلاف الزمن ، كما تظهر أهمية دراسة أثر الزمن في بناء المعاني في الحديث النبوي الشريف، في مجالات كثر ،جلها غير مطروق بلاغيًا، كما تمثل إضافة للأبواب المطروقة منها . فمن خلال التحليل البلاغي للألفاظ والأساليب التي استعملها النبيﷺ تحليلًا بلاغيًا ، يستطيع البلاغي التمييز بين المكي والمدني ، والأساليب البلاغية ، التي اتبعها النبي ﷺ في تربية أصحابه قبل الهجرة ، والأساليب التي اتبعها بعد الهجرة ، كشيوع الأسلوب الخبري على حساب الأسلوب الإنشائي مثلًا ، وذلك لسر بلاغي ، كغرس الأمل في نفوس الصحابة ، في وقت كانوا يحتاجون فيه لبناء هدف يضحون بأنفسهم من أجله ، وتربيتهم على تحمل المشاق في سبيل الدعوة الإلهية التي سينقلونها إلى العالم أجمع .

وقد دفعني للكتابة في هذا الموضوع ما وجدت من الكثرة الكاثرة من الكتاب والباحثين عند حديثهم عن الإبداع الأدبي للشعراء والكتاب، واختياراتهم اللفظية والأسلوبية ، حتى كادوا يصلون بهم إلى حد الإعجاز البلاغي ، فحرك عندي ما وجدت من بلاغة نبوية على كافة مستويات النص الأدبي ، بداية من الألفاظ ووصولًا إلى السياق الداخلي وموافقته للسياق الخارجي

فخطابهﷺ خطاب جاد، وتتغاير غاياته تغيرًا بينًا ؛ فتارة يقصد من حديثه تعليم أمته، وتارة يقصد معاني أخرى من العظة والتسلية والتصبر وبناء الهمم والتربية ، وغيرها كثيرمن الغايات، وتعدد الغايات يحتاج إلى تعدد الأساليب؛ فالغايات هي التي تحدد الأساليب الأجدى؛ سيما وأن صاحب البيان يأتيه الوحي من السماء؛ فيختار العبارة التي تحقق غايته، والتي تناسب حال المدعو، وتوافق مقتضى حاله، ولهذا وغيره نستطيع أن نقول إن الحديث النبوي بيان يغاير الكلام البشري ، وإن مظاهر

تمايزه تتمثل في خصائص عديدة ، خصها كثير من العلماء بالبحث والتصنيف ؛ فأفردوا لذلك أبحاثًا ومصنفات، من المتقدمين ومن المتأخرين ،وهي التفرد مع الاستمرار ، وعلامة التفرد و دليله الواضح إصابة الهدف المنشود فقط دون زيادة أو نقصان ،وهذا يعني أن الحديث النبوي الشريف يعتمد في خصائصه على الجمع بين الإيجاز وتحقيق غاية الإفهام والإبانة ، وما تقتضيانه من الوضوح ، كما أن الاطراد أيضاً من الخصائص التي لم تتوفر لشاعر أو أديب مهما كانت دربته أو موهبته، والديمومة بما لها من قدرة تتجاوز القدرة البشرية عند الخطباء والشعراء وعامة البلغاء.

وإن بحث المعاني ومعرفة أجناسها وأنواعها وعلاقاتها وروابطها وتقاربها وتباعدها يعد من صميم الدرس البلاغي ، كذلك واستخراج أي لطيفة من لطائف النص ، أو دقيقة من دقائقه هو من صميم البحث البلاغي، فبناء المعاني هو أن تضع المعني الأول ثم تبني عليه ، فبناء المعاني بعضها على بعض ، وتوالد بعضها من بعض ، ومعرفة وبيان كيف نمت وامتدت ، وتسلسلت من أولها إلى آخرها ، وكيف تشعبت أجزاء منها إلى شعب ومجموعات ، وكيف يرد بعضها إلى بعض ، وكشف الروابط والأشباه والنظائر التي بينها ، وأسرار الترتيب بين الجمل، كل ذلك وغيره جعله عبد القاهر هو المقصود الأصلي للبحث البلاغي.

فالعمل فيه يحتاج صبرًا أي صبر! ، وأناةً أي أناة ! ، حتي نقف على ما خفي من أمر هذه المعاني التي يحملها النص النبوي ، ومعرفة الأصول منها والفروع ، ومعرفة كيف ترابطت هذه المعاني وتآلفت و تماسكت ، وكيف تمددت أطرافها وتشعبت ، وكيف بدت ظاهرة جلية حينًا، وأحيانًا أخرى يكتنفها الغموض ، ومعرفة كيف ، ولماذا صاغ رسول اللهﷺ هذه الجمل على هذا النمط البلاغي ، فجاءت حبلى بكل هذه المعاني ، ولا يمكن استكناه كل المعاني التي يحملها النص النبوي ، وبيانها إلا بالتحليل البلاغي لكل أبواب المعاني، وهذا طريق جد مخيف، كما أنه جد عسير خاصة إذا علمنا أن تمثل المعاني وحدة واحدة ، وصورة متكاملة يعد من أعلى مراتب البلاغة ، بل إن الإمام عبد القاهر الجرجاني عدها هي النمط الأعلى، والباب الأعظم من أبواب البلاغة .

فبناء المعاني يقوم على التحليل البلاغي ، بغير قصر على باب من البلاغة دون باب ، فعلوم البلاغة جميعها تتكامل لتكون خدمٌ للمعنى الذي عناه المتكلم ، وهو رسول الله ﷺ، فلعلم البيان دوره في بناء المعنى ، كما أن لعلم البديع دوره في بناء المعنى، فبناء المعنى على المعنى ، والفكرة على الفكرة ، مع النظر إلى الجمل وطريقة بناءها ، هو المقصود من هذا البحث ، مع أن للتراكيب الأسلوبية دلالاتها البلاغية التي لا تغيب

عن عقل الناظر في الحديث النبوي ، ومع أن هذا الدرس من دروس البلاغة ، وهذا البحث من التحليل البلاغي ، قد كثر طرقه من العلماء في علوم أخرى – مثل علم التفسير، وعلم المناسبة – إلا أنه مازالت تكتنفه كثير من الصعوبات .

وقد اتفق البلاغيون قديمًا وحديثًا على خصوصية بلاغة النبيﷺ ، وإن مما اتفق عليه المتقدمون والمتأخرون من علماء المسلمين من بعد الإمام البخاري ، أن كتاب(صحيح البخاري) كما هو مشتهر بين العلماء قديمًا وحديثًا ، هو من أصح الكتب بعد كتاب الله ، فلعلو مكانة هذا السفر واتفاق العلماء على صحته وفضله ، كان اختياري له ليكون محلًا للدراسة التطبيقية لبناء المعاني ، ولأنال من شرف الانتساب إلى العمل فيه .

وما يزال الحديث النبوي الشريف نبعًا ثريًا ، ومعينًا غنيًا، وما يزال البحث فيه في حاجة إلى جهد كبير؛ وبناء المعاني خير مثال على ذلك ، فلا يخفى على دارس البلاغة النبوية أن الأساليب البلاغية في الحديث النبوي الشريف ، قد اختلفت اختلافًا كبيرًا من العهد المكي إلى العهد المدني ، ومع شدة الحاجة لدراسة الحديث النبوي الشريف، من هذه الزاوية ؛ إلا إنه لم توجد دراسة حسب علمي – حتى كتابة هذه السطور – تقوم على التمييز بين المكي والمدني في الحديث النبوي الشريف، من ناحية الأساليب البيانية ،والأغراض البلاغية ،والتقديم والتأخير بين الجمل، والإفراد و الجمع ، واستعمال وسائل غير لفظية تحقق المعنى المقصود لصاحب الرسالة ﷺ ، وبناء معنى على معنى ، وربط معنى بمعنى، وهكذا .

أثر التفريق بين الحديث المكي و المدني بلاغيًا

والتمييز بين المكي والمدني من الحديث النبوي يُبنى في الأساس على عامل الزمن، وتظهر أهمية دراسة أثر الزمن في بناء المعاني في الحديث النبوي الشريف، في مجالات كثر، جلها غير مطروق بلاغيًا، كما تمثل إضافة للأبواب المطروقة منها ، فمعرفة الحديث المكي من الحديث المدني بطول النظر فيهما ، وتحليل كلا الحديثين تحليلًا بلاغيًا ، يستطيع البلاغي التمييز بين الأساليب البلاغية ، التي اتبعها النبي ﷺ في تربية أصحابه قبل الهجرة ، والأساليب التي اتبعها بعد الهجرة ، كشيوع الأسلوب الخبري على حساب الأسلوب الإنشائي مثلًا، وذلك لسر بلاغي، كغرس الأمل في نفوس الصحابة ، في وقت كانوا يحتاجون فيه لبناء هدف يضحون بأنفسهم من أجله ، وتربيتهم على تحمل المشاق في سبيل الدعوة الإلهية التي سينقلونها إلى العالم أجمع .

كما يمكنه الوقوف على القضايا التي عالجها الخطاب النبوي قبل الهجرة ، والقضايا التي عالجها بعد الهجرة ،وأيضًا الوقوف على الأساليب الحجاجية التي بنى عليها رسول الله ﷺ خطابه للصحابة ،رضوان الله عليهم جميعًا، كاعتماده على الإقناع مثلًا في أوقات معينة ، بينما يعتمد الأسلوب التقريري في أوقات أخرى ، فضلًا عن اعتماده ﷺ على وسيلة خاصة من وسائل الإقناع المختلفة دون غيرها ، بما يتناسب مع المقام ، وما يقتضيه، من قصة أو ضرب للأمثال ،أو أي لون آخرمن أساليب الإقناع، كما يعين على استخراج المعاني الثواني، التي يرمي إليها المعصوم ﷺ في أقواله ، كما يمكن أن يفيد كثير من العلوم من هذا العلم ، بداية من علم أصول الفقه ، إلى غيره من العلوم الأخرى ؛ فمن خلال معرفة الحديث المكي والمدني يمكننا أن نتعرف على علة الأحكام، والتي من أجلها كان الحديث، والتي تبين مدى إدراك النبي ﷺ لعاملي الزمان والمكان .

وكذلك علم التربية ؛ فمعرفة الحديث النبوي المدني من المكي ، يقينًا تفيد دارس السيرة النبوية في معرفة الوسائل التربوية التي تناسب المربى والمربي؛ فمن خلال التمييز نعرف الوسيلة التي كانت الأنجع في تلك المرحلة من مراحل الدعوة الإسلامية الوليدة ؛ حيث كانت تحتاج مربيًا يختار الوسيلة التربوية المناسبة للصحابة ، وفي نفس الوقت تناسب المرحلة من عمر الدعوة . وجاء البحث كالتالي :

الفصل الأول: المفردات من حيث مادتها وعلاقتها ببناء المعاني

المبحث الأول : المادة اللغوية . إن تأثير الألفاظ المفردة في بلاغة الكلام وسياقه ،أمر يكاد يتفق عليه البلاغيون جميعهم ؛ المتقدمون منهم والمتأخرون، فاللفظة المفردة لبنة في جدار المعنى، وبالتالي تسهم في تتمة الصرح الكبير للمعاني، فمتى استراحت اللفظة في جملتها ، ولم ينبُ بها موضعها ، فقد أسهمت في قوة هذا البناء، فمعاني الألفاظ المفردة أبعاض المعاني الكلية

وبتحليل بعض أحاديث النبي ﷺ – التي يقطع بأنها كانت في المرحلة المكية – من ناحية الألفاظ ، نجد اختيار النبي ﷺ لمفردات دون غيرها ليحقق معنى دون غيره ، وعن تغاير دلالات بعض الألفاظ يقول ابن الأثير :(ومن العجيب أنك ترى اللفظتين تدلان على معنى واحد ، ويحسن استعمالهما ، إلا إنه لا يحسن استعمال هذه في

كل موضع تستعمل فيه هذه ، بل يفرق بينهما في السياق) [1] ، ونرى هذا بينًا في أحاديث المصطفى ﷺ في تلك الفترة ، وعلى سبيل المثال حينما كان يعلم أصحابه ــ عليهم جميعًا رضوان الله ــ مبادئ الدين الجديد ، ويرسم لهم ملامح التباين بين ما كانوا يعبدون ، وما هو حق للمعبود الحقيق بالعبادة ؛ فيعلمهم العقيدة الصحيحة في الله ــ تعالى ــ أولًا فيقول : (إن لله تسعة و تسعين اسمًا ، مائة إلا واحدًا، من أحصاها دخل الجنة) [2] ،في هذا الحديث انتقاء للنبي ﷺ لمفردات خاصة ، تناسب المرحلة التي ورد فيها الحديث ، فمن المقطوع به أن هذا الحديث كان في مرحلة العهد المكي ، وأنهﷺ كان يؤسس للعقيدة الصحيحة ، التي يجب أن يعتقدها الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين ، فبدأ يعرفهم بمعبودهم الذي يعبدون ، وأن له أسماء كثيرة ، من أحصاها دخل الجنة ، وانظر إلى اختيار النبي ﷺ لكلمة (أحصاها) والتي تتضمن معاني كثيرة جدًا ، فقد ذكر لها كثير من أهل العلم معاني كثيرة جدا ، فيقول بعضهم :(وللإحصاء معان ودلالات بينها العلماء في شروحاتهم ، فقد ذكر أبو سليمان الخطابي أن الإحصاء يتضمن وجوهًا أحدها : العد لها حتى يستوفيها ، وثانيها : الإطاقة أي من أطاق العمل بحق هذه الأسماء ، وأما ثالثها : فالإحاطة بمعانيها . وقد ذكر ابن حجر أقوالًا كثيرة لا تخرج في مجملها عما سبق) [3]

فالنبي ﷺ يعلم علم اليقين أنه يخاطب عقولًا تعيش في بيئة تؤمن بتعدد الآلهة و إن كانوا يعرفون الله لكنهم يعبدون معه غيره ؛ ولذا فهو يتدرج في الوصول بهذه العقول إلى التوحيد؛ فالتوحيد هومفتاح دعوة الرسل ، وزبدة رسالتهم ، والمعترك

---

(1) المثل السائر في أدب الكاتب و الشاعر ، لضياء الدين بن الأثير، قدمه وعلق عليه د أحمد الحوفي ، ود بدوي طبانة، طبعة دار نهضة مصر للطبع و النشر ، الفجالة القاهرة ، الجزء الأول ، ص (150)

(2) صحيح البخاري ، مرجع سابق ، كتاب الدعوات ، باب لله مائة اسم غير واحدة ، ص (1355) ، تحت رقم (6410)

(3) البلاغة النبوية في كتاب التوحيد ، مرجع سابق ، ص(39)

بين الرسل وبين أممهم ، ولذا فالنبي ﷺ يريد أن ينقل هؤلاء من عبادة معبودات متعددة لا يمكنها فعل شيء ، إلى معبود واحد له أسماء كثيرة ، قادر على كل شيء، فكان لابد من تصحيح تصوراتهم العقدية ، بإزالتها كلها تمامًا و البدء معهم من جديد حتى تستقيم عقيدتهم في الله تعالى ، فالإله الذي نعبده له أسماء كثيرة ؛ من حفظها وفهم معناها وآمن بها ، و عمل بمقتضاها دخل الجنة ، و في هذا إشارة إلى أن الله تعالى كاف عباده في كل ما يحتاجونه ، لدنياهم و أخراهم، أما لدنياهم فهو الرزاق ، وهو المعطي ، وهو المغني ، وهو وحده الضار، وهو النافع. وكاف عباده فيما يحتاجونه لأخراهم ، فهو الغفور، وهو الرحيم ، وهو القوي ، وهو الحسيب الذي يحاسب العباد؛ ولذا فالتوحيد هو مطلوب رسول الله ﷺ في هذا الحديث، لأنه الدعامة الأولى لهذا الدين ، والبليغ هو الذي يحسن اختيار اللفظة المفردة التي تعبر عن المعنى الدقيق الذي يريد إيصاله للمتلقي ، ويتفاوت البلغاء في هذا الحسن ، ولن يبلغ أحد ما بلغ رسول الله ﷺ في هذا.

المبحث الثاني:التعريف والتنكير. ومن الدقة في اختيار الكلم النبوي ،اختياره للتنكير أو التعريف ، ومنه مجيء استعمال أسماء الله عز وجل ملائمة للسياقات التي ترد فيها ، فانظر مثلًا إلى قول الرسول ﷺ (كلمتان حبيبتان إلى الرحمن ، خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان في الميزان ، سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم " [4] هذا الحديث حث وترغيب على ذكر مخصوص ، فيه فضائل جمة وعطايا كثيرة ، حيث محبة الرحمن ، ووفرة الحسنات، ويسر العمل وسهولته ، فتخصيص اسم الرحمن مقصود ههنا ؛ إذ هو بيان لسعة رحمة الله عز وجل التي وسعت كل شيء ، وجزيل عطائه الذي لا يحده شيء ، فهو يجازي على العمل القليل الثواب الجزيل) [5] , ولو نظرت في أحاديث تلك الفترة لوجدت تكرارًا لألفاظ دون غيرها ، وأسماء لله تعالى دون غيرها، وربما كان الغرض من ذلك تعليم الصحابة رضوان الله عليهم التوحيد الصحيح، وتعليمهم أسماء الإله الذي يعبدونه ، وبيان الصفات التي تجب له عز وجل، وعلى سبيل المثال في أحاديث الدعاء خاصة فيقول :(

---

(1) صحيح البخاري ، مرجع سابق ، ص(1589) رقم(7563)

(5) البلاغة النبوية في كتاب التوحيد ، مرجع سابق ، ص(37)

وفي حديث دعاء المكروب " لا إله إلا الله العليم الحليم ، لا إله إلا الله رب العرش العظيم ، لا إلـه إلا الله رب السموات ورب الأرض رب العرش الكريم "[6] ، نلحظ تكرار اسم الرب ، وفي إيثار هذا الاسم دون غيره مغزى لطيف ، ففي هذا الحديث القصير جاء اسم الرب مضافًا إلى عدد من مخلوقاته ومربوباته العظام ، والرب هوالسيد والمصرف والمدبر، فإذا كان الله هو المصرف والمدبر للسموات والأرض اللتين تعدان من أعظم المشاهدات ، والعرش الذي هو أكبر المخلوقات التي نعرفها ؛ إذًا هو السقف المحيط بالمخلوقات ، فالمكروب حين يتضرع إلى ربه بهذا الدعاء ، الذي يدل على عظمة الله وقدرته و إحاطته بكل شيء فإنه يزداد يقينًا بقدرة الله على كشف ما غشيه من كروب وما أظله من هموم وفي اصطفاء اسم الله الحليم سر بديع ، فكرب المؤمن غالبًا إنما هو على تقصير في الطاعات ، أو غفلة في الحالات ليشعر برجاء العفو المقلل للحزن) [7] كما يمكن أن يضاف إلى ما سبق أن اختيار الرسول ﷺ لهذه الأسماء دون غيرها ، إنما يشير إلى أن الإله الذي تدعوه أيها المؤمن اسمه الله ، ومن صفاته العِلم المحيط بالأشياء دقيقها وعظيمها ، ومن أسمائه العليم ؛ فهو يعلم سبب كربك ، ويعلم ما يفرجه ، كما أن من صفاته الحلم ، الذي معه يرجى التفريج ، الذي هو مراد العبد المكروب ، ومن أسمائه الحليم فهو الذي بحلمه يفرج الكرب عن المكروبين ، كما أن في اختيار النبي ﷺ لهذه الصفات خاصة ، وهي ربوبيته تعالى للسموات و الأرض بما فيهما من عظم في نظر العبد ، إنما يعطيه الأمل في قدرة الله تعالى على تفريج كرب المكروب ، فإذا كان الإله الذي تعبده يملك السموات والأرض ، فإنه يقدر على كشف كربك أيها المكروب ، كل هذه المعاني تعج بها ألفاظ النبي ﷺ في هذا الحديث ، وهذا هو ما يريد النبي تعليمه للصحابة في تلك الفترة حتى تتحقق عندهم الوحدانية لله تعالى ، كما يمكن أن يحمل نفي الوسيط بينهم و بين الله

---

(6) صحيح البخاري ، مرجع سابق ، كتاب التوحيد ، باب قول الله تعالى (تعرج الملائكة و الروح إليه،)، وقوله جل ذكره ﴿ إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ ﴿١٠﴾ ﴾ فاطر: ١٠، ص(1556) ، تحت رقم (7429)

(7) البلاغة النبوية في كتاب التوحيد في صحيح البخاري ، مرجع سابق ، ص(38)

تعالى ، حيث يعلمهم النبي ﷺ أن الله ليس بينه وبين عباده وسطاء ، فإن أصابك هم أو كرب فافزع إلى الله تعالى وحده ،وتقرب إليه بتلك الأسماء والصفات ، فالمقام كله مقام تعليم للصحابة رضوان الله عليهم أجمعين .

الفصل الثاني : لإسناد الخبري و أثره في بناء المعاني

المبحث الأول :الجملة الفعلية ، لقد كان لاختيار النبي ﷺ التعبير بالفعل دور في بناء المعاني ،كما كان حريصًا على تصحيح عقيدتهم في اليوم الآخر، وما يقع فيه من أحداث ؛ فقد وصف ذلك اليوم بألفاظ ، تبلغ الرسالة التي أراد النبي ﷺ تبليغها كاملة ، وهذه الرسالة هي تعليمهم أن الله وحده الذي يحاسب جميع الخلق على أعمالهم ،كما أراد بث روح الخوف والرهبة من الإله ، لأنه مالك ذلك اليوم، ففي الحديث الطويل الذي يصف فيه النبي ﷺ الموقف ، وما سيقع فيه وكيف سيكون الناس يومها ، حين يمرون على الصراط ، وما سيوجد على الصراط من كلاليب تخطف الناس ،(وفي سياقات الرهبة والخوف تأتي الألفاظ متضافرة لتصور المشهد أبدع تصوير ، ففي حديث مرور الناس على الصراط يقول النبي ﷺ : حتى إذا فرغ الله من القضاء بين العباد ، وأراد أن يخرج برحمته من أراد من أهل النار، أمر الملائكة أن يخرجوا من النار من كان لا يشرك بالله شيئًا ، ممن أراد الله أن يرحمه ، ممن يشهد أن لا إله إلا الله ، فيعرفونهم في النار بأثر السجود، تأكل النار ابن آدم إلا أثر السجود ،حرم الله على النار أن تأكل أثر السجود ، فيخرجون من النار وقد امتحشوا ، فيصب عليهم ماء الحياة ، فينبتون تحته كما تنبت الحبة في حميل السيل ،ثم يفرغ الله من القضاء بين العباد ، فيبقى رجل منهم مقبل بوجهه على النار، هو آخر أهل النار دخولًا الجنة ، فيقول: أي ربِّ اصرف وجهي عن النار ، فإنه قد قشبني ريحها وأحرقني ذكاؤها ....." [8] إن قراءة مثل هذه النصوص تبعث في النفس الرهبة من تلك الأهوال، وتزداد النفوس خوفًا ورهبًا عند التأمل في دلالات الألفاظ ، وسر اختيارها ، أمعن النظر في هذا اللفظ (امتحشوا) لم يقل احترقوا ، فالأمر ليس احتراقًا فحسب ، بل أشد من ذلك ، فهم قد احترقوا

(8) صحيح البخاري ، مرجع سابق ، كتاب التوحيد ، باب ما جاء في قول تعالى:﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ ﴾ القيامة: ٢2 ، ص (1558) ، تحت رقم(7437) .

وصاروا فحمًا ؛ فمن معاني المحش: احتراق الجلد وظهور العظم.[9] فمن شدة العذاب الذي أحاط بهم بدت عظامهم ،واحترقت جلودهم ، تأمل في قوله "قشبني" وكيف استطاع البيان النبوي بهذا اللفظ أن يتجاوز دلالة الإيجاز إلى تصوير مدى الأذى اللاحق بمن أقبل بوجهه على النار، ذكر صاحب اللسان بأن القشب هو: (خلط السم وإصلاحه حتى ينجع في البدن ويعمل [10] ويذهب الخطابي إلى أبعد من ذلك في بيان ذلك في دقائق هذه اللفظة) [11] ،ومن بلاغة النبي ﷺ اختياره للكلمات الموحية، والتي تخدم السياق الذي سيق له الحديث أصلًا ،فنجد كلمة(الذكاء) مثلا، والتي معناها : شدة وهج النار، والحدة في الشيء ونفاذه، ويمكن أن يجمع بين هذه المعاني ، فيكون المعنى :هو الشدة في وهج النار ولهيبها، فإذا كانت اللفظة المفردة تبين مدى شدة العذاب الذي يصيب أهل النار في دركاتها، فإن السياق سيكون أكثر بيانًا ، وأوضح تصويرًا. وفي هذا المعني يقول د/ عبدالله دراز :(ورب كلمة تراها في موضع ما كالخرزة الضائعة ، ثم تراها في موضع آخر كالدرة اللامعة ، فالشأن إذًا في اختيار هذا الطريق ، أيها أحق أن يُسلك في غرض ، وأيها أقرب توصيلًا إلى مقصد)[12]

أما إذا نظرنا إلى اختيارات الألفاظ و سماتها في العهد المدني فإننا نجد فرقًا كبيرًا ، بينه وبين العهد المكي ؛ فإذا كانت الألفاظ في العهد المكي تتسم بالوضوح والدلالة على المقصود ـــ في غالب الأحيان ـــ بدون استعمال أساليب مجازية ، والسبب في ذلك هو مراعاة النبي ﷺ لعامل الزمن ، وأيضًا مراعاته لحال المدعوين ؛ حيث

---

(9) لسان العرب ، للإمام العلامة أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري ، الجزء الثالث عشر ، ص 35 مادة (محش)

(10) المرجع السابق ، الجزء الحادي عشر ، ص (139) ، مادة (قشب)

(11) البلاغة النبوية في كتاب التوحيد من صحيح البخاري ص(43)

(12) النبأ العظيم ، نظرات جديدة في القرآن الكريم ، مرجع سابق ، ص (91)

إنهﷺ يعلم يقينًا أن المقام مقام تعليم ، ولا يتحمل المجاز، وفي هذا يقول د محمد رجب البيومي: (إن صاحب الدعوة في حاجة إلى توضيح مذهبه ، وإرشاد قومه ، ومناقشة خصومه ببيان واضح لا يجنح به الشعر عن الدقة والتحديد إلى المبالغة و الإغراق ، ولا يميل به عن الواقع المشاهد إلى الخيال الشارد) [13] ،

أما الألفاظ في العهد المدني فقد كان النبيﷺ يختار الألفاظ ذوات المعني العميق ، وأيضًا الألفاظ التي تحتمل أكثر من معنى ، وذلك لأسرار بلاغية ، ويشهد لهذا أيضًا حديث البراء بن عازب ﷺ ، (قال: قال رسول الله ﷺ ((إذا أتيت مضجعك فتوضأ وضوءك للصلاة ، ثم اضطجع على شقك الأيمن ، ثم قل :اللهم أسلمت وجهي إليك ، وفوضت أمري إليك ، وألجأت ظهري إليك رغبة ورهبة إليك ،لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك ، آمنت بكتابك الذي أنزلت وبنبيك الذي أرسلت ، فإن مت من ليلتك ، فأنت على الفطرة ، واجعلهن آخر ما تتكلم به)) قال : فرددتها على النبي ﷺ فلما بلغت : اللهم آمنت بكتابك الذي أنزلت ، قلت : ورسولك ، قال :((لا، ونبيك الذي أرسلت)) [14] ، فهنا يظهر جليًا مدى اهتمام النبي ﷺ بالألفاظ ، واختياره للفظ على حساب لفظ آخر، لأن هذه الألفاظ بنيت على ما يقتضيه السياق، وقد حاول كثير من العلماء الوقوف على السر البلاغي الذي جعل النبي ﷺ يؤثر كلمة نبي ، و يرد قول البراء بن عازب رضي الله عنه ، وينكر عليه هذا التغيير ، ومن هؤلاء الإمام ابن حجر ، إذ يقول : (قال الخطابي : فيه حجة لمن منع رواية الحديث على المعنى ، قال : ويحتمل أن يكون أشار بقوله :((ونبيك))إلى أنه كان نبيًا قبل أن يكون رسولًا ، أو لأنه ليس في قوله : ((ورسولك الذي أرسلت)) وصف زائد بخلاف قوله ((ونبيك الذي أرسلت))، وقال غيره :ليس فيه حجة على منع ذلك ،لأن لفظ الرسول ليس بمعنى لفظ النبي، ولا خلاف في المنع إذا اختلف المعنى ، فكأنه أراد أن يجمع الوصفين صريحًا وإن

---

(13) البيان النبوي ، د محمد رجب البيومي ، طبعة دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع ، ش م م ، المنصورة ، الطبعة الأولى 1407هـ 1987م ص(104)

(14) صحيح البخاري ، مرجع سابق ، كتاب الوضوء ، باب فضل من بات على الوضوء ، ص (55) ، تحت رقم (247) .

كان وصف الرسالة يستلزم وصف النبوة ، أو لأن ألفاظ الأذكار توقيفية في تعيين اللفظ وتقدير الثواب ، فربما كان في اللفظ سر ليس في الآخر ولو كان يرادفه في الظاهر، أو لعله أُوحي إليه بهذا اللفظ فرأى أن يقف عنده أو ذكره احترازًا ممن أرسل من غير نبوة كجبريل وغيره من الملائكة ، لأنهم رسل لا أنبياء ، فلعله أراد تخليص الكلام من اللبس ،أو لأن لفظ النبي أمدح من لفظ الرسول ، لأنه مشترك في الإطلاق على كل من أرسل ، بخلاف لفظ النبي فإنه لا اشتراك فيه عرفًا ، وعلى هذا فقول من قال : كل رسول نبي من غير عكس، لا يصح إطلاقه) [15] ، ومع كثرة الأوجه التي ذكرها الإمام ابن حجر إلا أن بعض العلماء كانت لهم توجيهات أخرى تسهم في بناء المعنى ، منها أن الذكر لو كان بلفظ الرسالة لكان في الكلام حشو معيب عند أهل البلاغة ، وذلك لأن المعنى سيتكرر في لفظ (أرسلت) بلا فائدة ؛ لأنه لو قال : ورسولك ، سيعلم منه أنه أرسله ، فيكون لفظ أرسلت حشوًا .

يقول القرطبي في توجيه لفظ النبوة على حساب الرسالة : (ليخرج عما يشبه التكرار للفظ من غير فائدة ،لأنه إذا قال : ورسولك ، فقد فهم منه أنه أرسله ، فإذا قال : الذي أرسلت ، صار كالحشو الذي لا فائدة له ، بخلاف : نبيك الذي أرسلت ، فإنهما لا تكرار فيهما لا محققًا ولا متوهمًا) [16] ، ولكن هذا الكلام لم يلق قبولًا عند كثير من العلماء لورود مثل هذا النظم في القرآن الكريم ، ولذا تعقبه الإمام ابن حجر

---

(15) فتح الباري بشرح صحيح الإمام أبي عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري برواية أبي ذر الهروي عن مشايخه الثلاثة السرخسي و المستملي و الكشميهني للإمام الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني 773 – 852هـ ، الجزء السادس ، تقديم و تحقيق و تعليق عبدالقادر شيبة الحمد ، عضو هيئة التدريس بقسم الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقًا ، و المدرس بالمسجد النبوي الشريف ، طبع على نفقة صاحب السمو الملكي الأمير/ سلطان بن عبدالعزيز آل سعود ، الطبعة الأولى 1421هـ 2001م ، الجزء الأول ، ص (733)

(16) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم ، لأبي العباس القرطبي ، تحقيق محيي الدين مستو و آخرين ، دار ابن كثير للطباعة بدمشق ، الطبعة الأولى 1420هـ ، الجزء السابع ، ص (40)

العسقلاني بقوله : (وقوله صار كالحشو ، متعقب ؛ لثبوته في أفصح الكلام كقول الله تعالى: ﴿ لى لي ما مم نر نز نم ﴾ إبراهيم (45) ﴿ به تج تح تخ تم ته ثم جح جم حج حم خج﴾ المزمل (15)﴿ هج هم هى هي يج يح يخ﴾ التوبة (33) ﴿ كا كل كم كى كي لم لى لي﴾ إلى غير ذلك) [17]

وبعد الوقوف على آراء العلماء والنظر فيها ، نخلص إلى أن النبي ﷺ إنما رد على البراء بن عازب رضي الله عنه هذا التغيير لعلمه ﷺ بالفرق بين اللفظين ، وما يترتب على ذلك من تغيير في المعنى ، وعلاقة ذلك بالسياق الزمني الذي ورد فيه الحديث ، سواء توصل العلماء إلى الفرق بين اللفظين ،أم لم يتوصلوا ، وليعلمه ﷺ حقيقة الاتباع ، سواء وجد فرق بين اللفظين أم لم يوجد ، فعليك بالاتباع فقط ، والسبب في ذلك أن كلام النبي ﷺ كان في مقام التعليم ، ومثل هذا المقام لا يقبل فيه الاجتهاد ، والدليل على ذلك الألفاظ التي استعملها ﷺ ، وكلها أفعال أمر، (فتوضأ) و(اضطجع) و(قل) ، وهذا ما يتفق مع الغرض من هذا الحديث ، وهو تعليم الصحابة المنهج الصحيح للدين الإسلامي ، كما يتناسب مع الزمن الذي قيل فيه الحديث ، (خاصة أنه كان من صغار الصحابة) [18] .

المبحث الثاني: الجملة الاسمية : ومن أوضح الأمثلة على بناء المعنى على الجملة الاسمية حديث الصدق ، ولكن قبل الحديث عن الجملة الاسمية ، وما فيها من معانٍ بني بعضها على بعض ، واتصل بعضها ببعض، وتولد بعضها من بعض ، وأخذ بعضها بعضد بعض. ننظر إلى ترتيب المعاني وكيف بناؤها في هذا الحديث :(عن عبدالله ﷺ ، عن النبي ﷺ قال : (**إن الصدق يهدي إلى البر،**

---

(17) فتح الباري بشرح صحيح البخاري ، لابن حجر العسقلاني ، مرجع سابق ، الجزء الحادي عشر ، ص (112)

(18) سير أعلام النبلاء ، للإمام أبي عبدالله شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي ، طبعة مضبوطة مصححة مخرجة التراجم ، مرتبة علىحروف الهجاء على طريقة الأعلام للزركلي ، رتبه و زاده فوائد و اعتنبى به حسان عبدالمنان ، حقوق الطبع و الترجمة محفوظة ل بيت الأفكار الدولية ، طبعة 2004م ، الجزء الأول ، تحت رقم (1166) ، ص (1192)

وإن البر يهدي إلى الجنة ، وإن الرجل ليصدق حتى يكون صديقًا ، وإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عندالله كذابًا) [19] فالنبي ﷺ وهو الذي أوتي جوامع الكلم ، يعالج بهديه أحوال النفس البشرية ، يختار لها من الكلمات والجمل ما يناسب حالها ، ويصلح شأنها ، فهو ﷺ يهادي بين أسلوبي الترغيب والترهيب ، والأمر والنهي .

فتارة يأمر ويغري المسلم بالالتزام بالصفات المحمودة ، ويرتب عليها درجة عليا في الطاعة ، ثم يغريه بالالتزام بهذه الطاعة ليصل إلى المقصود الأسمى والغاية القصيا من كل طاعة ، وهي الجنة ، وهو في في كل ذلك يعتمد الجملة الاسمية وسيلة وحيدة ، وطريقًا فريدا في كل جمل الحديث ، وذلك لتدل على الثبوت والدوام ؛ فيغريه بالصدق ، ثم يغريه بالبر ليصل إلى الجنة ، ويختار نوعًا خاصًا من الجملة الاسمية ، وهو الاسمية ذات المسند إليه المعرف بأل ؛ (الصدق ، البر) المخبر عنهما بجملة فعلية فعلها مضارع ، وهذا النوع من الخبر يؤدي معنى يختلف عن الجملة الفعلية الأصلية ، ذات الفعل والفاعل ، يقول عبدالقاهر الجرجاني في بيان الفرق بين أنواع الخبر المختلفة ، بعد أن أبان الفرق بين الخبر والحال من حيث علاقتهما بالمبتدأ : (وإذ قد عرفت هذا الفرق ، فالذي يليه من فروق الخبر، هو الفرق بين الإثبات إذا كان بالاسم ، وبينه إذا كان بالفعل ، وهو فرق لطيف تمس الحاجة في علم البلاغة إليه .) [20] ، فهذا النوع من الخبر إذا كان بالاسم تختلف دلالته عن الخبر إذا كان بنوع آخر؛ كالجملة الاسمية ، أو الفعلية ، أو شبه الجملة ، فيقول :(وبيانه أن موضوع الاسم على أن يثبت به المعنى للشيء من غير أن يقتضي تجدده شيئًا بعد شيء) [21] ، فالخبر إذا كان مفردًا يدل على

---

(19) صحيح البخاري ، مرجع سابق ، كتاب الأدب ، باب قول الله تعالى﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ١١٩ ﴾ وما ينهي عن الكذب) ، ص (1294) ، تحت رقم (6094)

(20) دلائل الإعجاز ، عبدالقاهر الجرجاني ، مرجع سابق ، ص (174)

(21) السابق نفسه ، ص (174)

إثبات المعنى فقط ، بغير دلالة على تجدد أو حدوث ، أما الخبر الجملة فيقول عنه :(وأما الفعل فموضوعه على أنه يقتضي تجدد المعنى المثبت به شيئًا بعد شيء ، فإذا قلت : " زيد منطلق " ، فقد أثبت الانطلاق فعلًا له ، من غير أن تجعله يتجدد ويحدث منه شيئًا فشيئًا ، بل يكون المعنى فيه كالمعنى في قولك : " زيد طويل " ، و" عمرو قصير " فكما لا تقصد هنا إلى أن تجعل الطول والقصر يتجدد ويحدث ، بل توجبهما وتثبتهما فقط ، وتقضي بوجودهما على الإطلاق ، كذلك لا تتعرض في قولك : " زيد منطلق " لأكثر من إثباته لزيد ، وأما الفعل ، فإنه يقصد فيه إلى ذلك . فإذا قلت : " زيد ها هو ذا ينطلق " ، فقد زعمت أن الانطلاق يقع منه جزءًا فجزءًا ، وجعلته يزاوله ويزجيه .) [22]

فتعبير النبي ﷺ بقوله :(**إن الصدق يهدي إلى البر**) ، باستخدام الجملة الاسمية المخبر عن المسند إليه فيها بالجملة الفعلية يراد به : أن الرجل الذي يصدق ، ويستمر في مزاولة ومعالجة الصدق حتى يصير الصدق له ديدن ودين ، ويظل في معالجة نفسه بالصدق ، ولا يفارق هذه الصفة ، وكلما بليت جددها ، وكلما انحسرت مددها ؛ فالصدق له ثابت ودائم ، ومن يداوم على ذلك يُهدى إلى البر ، كل هذه المعاني حققتها الجملة الاسمية الكبرى ، التي جاء خبرها جملة فعلية ، فعلها مضارع ، ومثل هذا المعنى في استخدامه ﷺ للجملة الاسمية الكبرى مرة ثانية في قوله :(**وإن البر يهدي إلى الجنة**) ، فقد جاءت الجملة الثانية على نفس الدرجة من التعريف والتوكيد ، فالمسند إليه اسم إن ، مخبر عنه بجملة فعلية ، فعلها مضارع ، ليدل على معالجة المسلم لأمر البر معالجة دائمة مؤكدة ، فإن المداومة على الصدق تولد ألوانًا أخرى من الطاعات ، وبها يصير الصادق من الأبرار ، ومن يداوم على البر بأنواعه المختلفة ، ويستمر على ذلك يهدي إلى الجنة ؛ فالثبات والدوام على البر يولد هداية متجددة توصله إلى الجنة ، وكذلك الجملة الثالثة ، التي جاء المسند إليه فيها – اسم (**إن**) –اسمًا جامدًا (**الرجل**) ، ومخبر عنه بجملة فعلية فعلها مضارع ؛ ليدل على التجدد والحدوث في الخبر دون المبتدأ ، ولكن في هذه الجملة استعمل النبي ﷺ مؤكدًا زائدًا ، بالإضافة إلى المؤكدات الموجودة في الجملتين السابقتين ، وهو اللام ، ففي الكلام تصعيد ليدل على

---

(22) المرجع السابق نفسه ، ص (174)

صعوبة الدرجة التالية ، وهي درجة الصديقين ، فلا ينال هذه الدرجة إلا من توفرت فيه صفات شديدة ، وكلما بليت جددها ، وهي الصدق ، وهو أشد من الصدق الأول ، الذي كان جزاؤه الهداية إلى البر .

وفي هذه الجملة التفات بلاغي ، فقد غيّر النبي ﷺ طريق النصح ، فاستعمل لغة الغائب ، بعد أن كان حديثه عن صفة الصدق ، فيشحذ همم الصادقين ، وذلك ببيان الدرجة العليا التي أعدها الله لمن يتحرى الصدق ، ويستمر في انتهاج منهج الصادقين ، فيعده بأن يكتب من الصديقين ، وقد استعمل النبي ﷺ في كل هذا جملًا اسمية ، ودلالتها على التوكيد ظاهرة .

وتارة أخرى يعتمد النبي ﷺ أسلوب الترهيب والتنفير، والنهي عن الصفات المذمومة ، والتي يترتب عليها معصية أخرى ، ثم يحذر من الاستمرار في هذه المعصية ، وهي الكذب ، حتى لا يصل إلى ما هو أشد ، وهو الفجور، فجاء هذا التحذير في صورة الجملة الفعلية التي هي الخبر **(يهدي إلى الفجور)**

ففي هذا الحديث بنيت المعاني بناء فنيًا متماسكًا ، بحيث لو تقدمت جملة عن مكانها الموضوعة فيه في هذا البناء لاختل استواؤه الفني ، فالنبي ﷺ قدم للمعنى الذي هو مقصوده من الحديث ، بأمر عام ، بغير تفصيل ولا تعليل ، وهو قوله ﷺ **(إن الصدق يهدي إلى البر)** ، ولم يبدأ بالنداء – مثلًا –الذي يدعو إلى الانتباه ؛ ليناسب المقام الذي قيل فيه الحديث ، بل بدأه بصيغة غاية في التأكيد مباشرة ، وهي جملة اسمية مبدوءة بالتأكيد **(إن)** ، وهذا التصدير بإن ، إنما هو لرعاية حال المخاطبين ، حقيقة أو تنزيلًا ، ربما لغرابة الجزاء الذي علقه النبي ﷺ على الفعل في نظر بعض الناس ، حيث جعل الصدق سببًا للهداية إلى البر، كما جعل البر سببًا للهداية إلى الجنة ، وأيضًا جعل الاستمرار على الصدق سببًا في الدخول في درجة الصديقين ، وهي المنزلة العالية كما هو معلوم ، فكل هذه الجزاءات ربما يعدها السامع غريبة ، كما يمكن أن يكون التأكيد لسر بلاغي آخر، (هو ترسيخ الخبر وتمكينه في نفس السامع ترغيبًا أو ترهيبًا أو تسلية و تطييبًا أو إشعارًا بالاهتمام) [23] ولذا أكد النبي ﷺ جمل هذا الحديث .

---

(23) البلاغة العالية في علم المعاني ، الدكتور عبدالمتعال الصعيدي ، مكتبة الآداب ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، 1420هـ ،1998م ، ص(46)

فجعل الجملة الأولى بمثابة الأساس الذي تبنى عليه بقية الجمل، ثم يترقى النبي ﷺ بالمخاطب من معنى إلى معنى ، فتصير المعاني كأنها تنتقل على درج سلم حسي ، يوافق الفطرة البيانية السليمة ، ثم يربط بين هذه الجملة والتي تليها برباط لفظي وآخر معنوي ، رباط لفظي فقد أخذ من عجُز الجملة الأولى مفتاحًا للجملة الثانية ، فقد ختم الجملة بقوله:(**البر**) ، وهي كلمة جمعت حروف ، هي الباء والراء ، ثم افتتح الجملة الثانية بكلمة لها نفس الحروف ، وهذا التماس اللفظي بين الجملتين يملأ جوانب النفس راحة، ويصعد بالمعنى من جملة إلى أخرى ، كما تصعد الألفاظ ، من لفظة إلى أخرى ؛ فبناء المعاني يسير وفق بناء الألفاظ .

ومن الرباط اللفظي أيضًا أنه ﷺ عطف الجملة الثانية على الجملة الأولى لما بينهما من التلاحم والترابط الوثيق ، فكلتا الجملتين خبرية لفظًا ومعنى ، ومن كمال البلاغة وبهاء البيان النبوي أنك تجد الجملتين على نفس الدرجة من التوكيد ، ونفس النوع من الصياغة فكلاهما اسمية مؤكدة بإن ، والمسند إليه فيها مفرد مخبر عنه بجملة فعلية ، فعلها مضارع

أما الرباط المعنوي فقد أخذ صاحب البيان ﷺ كلمة الصدق التي أمر بها في الجملة الأولى ، ليجعلها متكئًا يصل به إلى ما يريد الإخبار به ، وهو أن الصدق يهدي إلى البر .

ثم يصعد بالبناء الفني للمعنى درجة ثانية ، وطابقًا ثانيًا ؛ فيتولد من الجملة الأولى– وهي قوله :(**إن الصدق يهدي إلى البر**) – جملة ثانية ، وهي قوله : (**وإن البر يهدي إلى الجنة**) ، فيتولد البر من الصدق ، فيأخذ من كلمة البر كما أخذ مع الصدق ؛ فيجعل التماس اللفظي وسيلة لربط بناء الجمل في الحديث النبوي ، فالبر بمعناه أوسع وأشمل من الصدق ، ومرتب عليه ، وكأن النبي ﷺ ينتقل بذهن المخاطب من الخاص(الصدق) إلى العام (البر) ، وكأنه ﷺ يريد أن يجعل دخول الجنة مبنيًا على البر ، وأن البر مبنيًا على الصدق ، فكأن الطريق الموصلة إلى الله سلم ، وأن أول مراقي هذا السلم هو الصدق ، فإذا تحقق هذا العمل ، الذي هو الصدق فإن صاحبه يرتقي إلى الله درجة ، فيكون من الأبرار، فالنبي ﷺ يرتقي بهذه المعاني وفق تصور ذهن المخاطب و إحساسه .

ثم يسوق النبي ﷺ جملة يؤكد بها معنى الجملة الأولى ، ويؤكد شدة الترابط بين الجملتين ، بالإضافة إلى تغييره في صيغة الخبر، وهي قوله :(وإن الرجل ليصدق حتى يكون عند الله صديقًا)) ، فهذا إغراء للمسلم بلزوم الصدق . ثم يعطف النبي ﷺ كلامه الخبري عن الكذب على كلامه الخبري عن الصدق ، فيصوغ الحديث عن الكذب

بمثل صياغته عن الصدق ، ويبنى المعاني بنفس البناء الذي بنى به المعنى الأول ، ويدخل الجمل بعضها في بعض كما فعل في المعنى الأول ، ويربط الجملتين برباط يوضح ويؤكد المعنى المقصود فيهما ، فكما بنى دخول الجنة على البر ، فقد بنى البر على الصدق ، ومثل هذا تمامًا بنى دخول النار على الفجور ، وبنى الفجور على الكذب ، فليس هناك رباط لفظي أو معنوي أوثق من هذا ، فقد امتد المعنى وتسلسل في هذا الحديث بما يعني قوة ارتباط جمله بعضها ببعض، فضلًا عن الترتيب بين هذه الجمل ، والذي يمثل تأسيسًا للمعنى لتكتمل الصورة في ذهن المخاطب ؛ مما يعد عاملًا مهمًا في بناء المعنى الكلي للحديث

الفصل الثالث :الترتيب وأثره في بناء المعاني

المبحث الأول : التقديم والتأخير بين الجمل فمن أهم الأركان التي تبنى عليها المعاني في الحديث النبوي ، تقديم بعض الجمل على بعض ، وتأخير بعضها ، ويبدأ الحديث بالتقديم والتأخير بين الجمل ، لأن التقديم والتأخير بين الجمل أظهر أثرًا في بناء المعاني من المفردات ، كما أن المعاني التي تحملها الجمل أكبر من المعاني التي تحملها المفردات ، وبالتالي فإن دور الجمل في البناء المعنوي أكبر من دور المفردات ، ثم إن العلاقات والمناسبات بين الجمل تتعدد بتعدد المعاني التي يساق من أجلها الحديث ، والحاجة إلى إدراكها أشد ، وذلك ليتمكن المعنى في ذهن السامع .

والتقديم والتأخير بين الجمل قد يكون لداع من الدواعي البلاغية ، مثل موافقة الترتيب في الواقع الخارجي ، كما أنه قد يكون لوجود صورة من صور التناسب المختلفة ؛ كبناء بعضها على بعض ، وتسلسل بعضها من بعض ، وتوالد بعضها من بعض ، ومن ذلك قوله ﷺ فيما يرويه أبوهريرة رضي الله عنه : ((إن الله خلق الرحمة يوم خلقها مائة رحمة . فأمسك تسعًا وتسعين رحمة ، وأرسل في خلقه كلهم رحمة واحدة ، فلو يعلم الكافر بكل الذي عند الله من الرحمة لم ييأس من الجنة . و لو يعلم المؤمن بكل الذي عند الله من العذاب

لم يأمن من النار)) [24] ، وفي هذا الحديث بنى النبي ﷺ المعنى على خمسة جمل فعلية ، فقدم إحداها ممهدًا للمعنى ، ولذا تسلسل المعنى من أول الحديث إلى آخره يتهادى بين هذه الجمل ، وأخذت كل جملة بحجز أختها ، فقد أسس النبي ﷺ للمعنى بجملة واسعة الدلالة ، تمثل مقدمة منطقية للجملة التي بعدها ، فالمعنى مرتب ترتيبًا منطقيًا ، فالأولى تسلم إلى الثانية ، والثانية ممسكة بطرف من الأولى، فبينهما اتصال لفظي ومعنوي ؛ اتصال لفظي متمثل في لفظ رحمة الذي صرح به النبيﷺ تمييزًا للعدد مائة في الجملة الأولى ، ثم أعاده بلفظه في الجملة الثانية ؛ فقد اشترك بين الجملتين ؛ فكلمة (رحمة) الثانية هي نفسها الرحمة الأولى ، واتصال معنوي يتمثل في روح التبشير بالرحمة ، التي تنتقل بين الجمل .

ومما يقوي الارتباط المعنوي بين الجمل قيامه على أسلوب الإجمال والتفصيل ، والذي يمثله التقسيم في هذا الحديث ، فقدم النبي ﷺ جملة تمثل الأصل ، والجملتان الثانية و الثالثة معًا مفرعتان عن الجملة الأولى ، ومبنيتان عليها ، فمجموع الرحمة مقسم إلى قسمين ؛ الأول و هو تسع وتسعين رحمة ، والثاني وهو رحمة واحدة ، وهذا التقديم والعطف عليه ، ثم التقسيم مما يشد قوة الترابط بين الجمل ، و يجعلها كلها في حالة تعلق واتصال بعضها ببعض .

ثم بنى على الجملتين السابقتين جملة (وأرسل في خلقه كلهم رحمة واحدة) وهي جملة ذات دلالة عامة ، في قوله: (خلقه) ، ليشمل التعبير كل من يتأتي منه الرحمة من المخلوقات ، فكل الكائنات الحية أصابها من هذه الرحمة نصيب ؛ حتى الحيوانات ؛ الفرس وغيرها ، وقد صرحت رواية أخرى بهذا المعنى المفهوم ، فتقول تلك الرواية : (جعل الله الرحمة مائة جزء ، فأمسك عنده

---

(24) صحيح البخاري ، مرجع سابق ، كتاب الرقاق ، باب الرجاء مع الخوف ، و قال سفيان : ما في القرآن آية أشد عليّ من ﴿ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ﴿٦٨﴾ ﴾ المائدة: ٦٨ ، ص (1366) ، تحت رقم (6469)

تسعة وتسعين جزءًا ، وأنزل في الأرض جزءًا واحدًا ، فمن ذلك الجزء تتراحم الخلائق حتى ترفع الفرس حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه) [25]

وهذه الجملة متعلقة بالجملة الأولى تعلق الأقسام بالشيء المقسوم ،أو تعلق الجزء بالكل، وذلك في قوله :(رحمة واحدة)، وهذه الرحمة التي ذكرها بالاسم الظاهر ،هي المتبقية من المائة بعد التسع والتسعين التي بقيت عنده ، ومن العجيب أن يأتي في هذه الجملة بتوكيدين ؛ الأول : توكيد يفيد العموم والشمول المفهوم من قوله : (خلقه) وهو قوله :(كلهم) ، والثاني : قوله :(واحدة)، وهو يضاد الأول ، ليفيد التخصيص،(والشيء كما يحن إلى نظيره يأخذ بحجزة شبيهه ، فإنه يأخذ بحجزة ضده ونقيضه ويقف بجانبه ليكوّن معه صورتين متقابلتين) [26] ، وفائدة التوكيد المضاف إلى ضميريعود على المذكور في الجملة الأولى أنه يقوي اتصال الجمل بعضها ببعض ، وتعلق بعضها ببعض ، بحيث لا تستغني واحدة عن أختها .

ثم استأنف النبي ﷺ المعنى بقوله : (فلو يعلم الكافر بكل الذي عند الله من الرحمة لم ييأس من الجنة)، واستعمال هذا الأسلوب المكون من الشرط ب(لو) مما يعطي للعقل مجالًا للتخيل والتفكير بما لا حدود له ، فهذا الأسلوب يدل دلالة واضحة على سعة رحمة الله ، ويؤكد هذا المعنى المفهوم استعمال الفاء الاستئنافية دون غيرها من حروف العطف ، فقد جاءت الفاء لتفيد التوكيد مع الاستئناف [27] ، وقد ذكر ابن حجر أنها للترتيب ، فقال :(ثبت في هذه الطريق بالفاء إشارة إلى ترتيب ما بعدها على ما قبلها ، ومن ثم قدم ذكر

---

(25) صحيح البخاري ، مرجع سابق ، كتاب الأدب ، باب : جعل الله الرحمة مائة جزء ، ص (1277) ، تحت رقم (6000)

(26) من صور التناسب في الحديث الشريف ، مرجع سابق ، ص(751)

(27) من أسرار الجمل الاستئنافية دراسة لغوية قرآنية ، الدكتور / أيمن عبدالرزاق الشوا ، مدرس اللغة العربية بجامعة دمشق ، كلية الآداب ، طبعة دار الغوثاني للدراسات القرآنية ، دمشق سوريا ، الطبعة الأولى ، 1430هـ 2009م ، ص(257)

الكافر لأن كثرتها وسعتها تقتضي أن يطمع فيها كل أحد ، ثم ذكر المؤمن استطرادًا) [28] .

وإن كان الجمع بين القول بالترتيب أو التوكيد لا يبعد ، فيكون المعنى للترتيب فقط ،من حيث بناء المعنى بعضه على بعض ؛ فيكون طمع الكافر في رحمة الله مرتبًا على سعتها ، كما تكون للتأكيد حيث يوافق المعنى المقصود من هذه الجملة المعنى المقصود من الجمل السابقة ، ولذا يقال إنها مرتبة على الأولى ومؤكدة لها ،ومن عجيب أمر بناء المعاني في هذا الحديث بعيدًا عن التقديم والتأخير ؛ التعبير ب(لو) داخلة على المضارع ، فإن الحرف(لو) يفيد امتناع الجواب لامتناع الشرط ،والتعبير بالمضارع بعد (لو) أفاد أن هذا العلم لم يحدث في الماضي ، ولا في الحاضر، ولن يحدث في المستقبل (والحكمة في التعبير بالمضارع دون الماضي الإشارة إلى أنه لم يقع له علم ذلك ولا يقع ،لأنه إذا امتنع في المستقبل كان ممتنعًا فيما مضى) [29] ، فيكون المعنى أنه يئس من رحمة الله لأن لم يعلم بسعتها ، وهذا يوافق قوله ﴿ نخ نم نى ني هج هم هى هي يج يح ﴾ [30]

فقدم النبي ﷺ ذكر الكافر لمناسبة سعة الرحمة ، وهي المقصودة من حديثه ﷺ ؛ ولأن الكافر إذا علم بسعة رحمة الله ولم ييأس منها ؛ فيكون من باب أولى المؤمن الذي يعلم بسعتها ويعمل لها أن تصيبه ،والأمر بالعكس مع العذاب، ولكن النبي ﷺ لم يذكر العذاب لتلازمهما مع المخالفة ؛ أي أنه لم يذكر خوف الكافر من النار لأنه لم يعلم بها و لم يؤمن بها ، كما لم يعلم بسعة رحمة الله ، وهكذا مع المؤمن في شأن الرحمة والعذاب، وفي تكرار النبي ﷺ لكلمة (الرحمة) في كل جملة من جمل الحديث إظهار للمعنى المراد إيصاله ، والروح التي يراد بثها ، ففي التصريح بها مع جواز الحذف أو الإضمار تأكيد للمعنى المفهوم من من جمل الحديث .

وقد أسفر البحث هذا عن جملة من النتائج ، أهمها :

---

(28) فتح الباري بشرح صحيح البخاري ، مرجع سابق ، الجزء العشرون ، ص (155)

(29) السابق نفسه ، ص (155)

(30) سورة يوسف الآية (78)

1-أن المعنى في الحديث النبوي يمثل بناءً متكاملًا يشبه البناء الحسي تمامًا ، ترتبط أجزاؤه بعضها ببعض، يؤسسه النبي ﷺ على أسس وروابط ، قد تكون لفظية أو معنوية ،أو هما معًا ، هذه الروابط تجعل المعنى يسير بين ثنايا هذا البناء اللفظي وفقًا للسياق الخارجي الذي يوجهه سبب ورود الحديث، وظرفه الخاص به ، ثم المقصود النبوي لكل حديث .

2-أن هناك علاقة بين اختيارات النبي ﷺ للمفردة ، خاصة المادة المعجمية ،وبين الزمان والمكان ، فمن خلال تحليل نماذج من الأحاديث تبين أن النبي ﷺ اختلفت المفردات عنده بعد الهجرة عنها قبل الهجرة ، وإذا ثبت أنها تأثرت بالزمان فقد تأثرت كذلك بالمكان ، فقد اختلفت ألفاظه ﷺ في المدينة عنها في مكة ،مع بلوغه ﷺ درجة من الفصاحة البشرية في كلا المكانين ، لا يدانيها فصاحة أحد من البشر .

3-أن البلاغة النبوية تعدت حدود اختيار المفردة لمراعاة مقتضى الحال إلى مستوى بلاغي أعلى ، وهو مستوى اختيار القوالب التي تحمل تلك المعاني ،من جمل وأساليب ، فهناك علاقة وطيدة بين بناء المعنى في الحديث النبوي ،والأسلوب الذي يستعمله ليحمل المعنى المراد إيصاله إلى السامع ،ثم اختياره ﷺ لهيئة المفردة ،من حيث التنكير والتعريف بأنواعه المختلفة ، وكذلك هناك علاقة بين اختياره الأسلوب المناسب والسياق الذي ورد فيه الحديث النبوي ، ومراده ﷺ من الحديث .

المصادر و المراجع

١) إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري ، تأليف الإمام شهاب الدين أبي العباس أحمد بن محمد الشافعي القسطلاني ،ت(923)هـ ، ضبطه وصححه محمد

عبدالعزيز الخالدي ، طبعة دار الكتب العلمية بيروت لبنان ، الطبعة الأولى ، 1416هـ 1996م

٢)أسرار البلاغة ، تأليف الإمام أبي بكر ، عبد القاهر بن عبدالرحمن بن محمد الجرجاني النحوي ، تغمده الله بغفرانه المتوفى سنة 471 أو 474هـ ، قرأه وعلق عليه أبوفهر محمود محمد شاكر ، الناشر دار المدني بجدة ،1411هـ 1991م .

٣)إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ، مصطفى صادق الرافعي ،طبعة دار الكتاب العربي ، بيروت ،شارع فردان ،بناية بنك بيبلوس الطابق الثامن، لبنان،الطبعة التاسعة ،1393هـ1973م .

٤)بناء الجملة في الحديث النبوي الشريف في الصحيحين ،تأليف د/ عودة خليل أبو عودة ، دار البشير ،مركز جوهرة القدس التجاري ،العبدلي ، عمان ،الأردن .

٥)البيان والتبيين ،أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ 150 – 255هـ ،بتحقيق وشرح عبدالسلام محمد هارون ، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر والتوزيع ، القاهرة الطبعة السابعة 1418هـ 1998م .

٦)الحديث النبوي من الوجهة البلاغية ، د/ كمال عزالدين ، دار اقرأ للطباعة ، بيروت ، الطبعة الأولى 1984م .

٧)زاد المسلم فيما اتفق البخاري ومسلم ، للعبد الفقير صاحب العجز والتقصير محمد حبيب الله بن الشيخ سيدي عبدالله بن سيدي أحمد المشهور بمايابي الجكني ثم اليوسفي نسبًا المالكي مذهبًا الشنقيطي إقيلمًا المدني مهاجرًا ، وبذيله حواش لطيفة للمؤلف بين بها بعض ما تشتد الحاجة لبيانه من ألفاظه أو معانيه سماها فتح المنعم ببيان ما احتيج لبيانه من زاد المسلم ، الجزء الأول ، طبع بمطبعة دار إحياء الكتب العربية لصاحبها عيسى البابي الحلبي و شركاه ، بجوار سيدنا الحسين بمصر .

٨)شرح لبعض أحاديث الإمام البخاري ، دراسة في سمت الكلام الأول ، للدكتور/ محمد محمد أبو موسى ،مكتبة وهبة القاهرة ، الطبعة الأولى ، 1421هـ .

٩)صحيح البخاري ، المسمى ، الجامع الصحيح المسند المختصر من حديث رسول الله ﷺ وأيامه ، للإمام أبي عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري الجعفي رحمه الله تعالى ، طبعة فريدة مصححه مرقمه حسب المعجم المفهرس وفتح الباري ومأخوذة من أصح النسخ ومزيلة بأرقام طرق الحديث ، من إصدرارات وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد ، المملكة العربية السعودية ، طبعة دارالسلام للنشر والتوزيع ،الرياض،الطبعة الأولى 1417هـ 1997م .

١٠)الفائق في غريب الحديث ،للعلامة جار الله محمود بن عمر الزمخشري ، طبعة دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع .

١١) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ، تأليف أبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي ،اعتنى به و خرج أحاديثه وعلق عليه خليل مأمون شيحا ، وعليه تعليقات كتاب الانتصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال للإمام ناصر الدين ابن منير المالكي ، دار المعرفة ، بيروت لبنان ، الطبعة الثالثة ، 1430هـ 2009م

١٢) المطول شرح تلخيص مفتاح العلوم ، لسعد الدين مسعود بن عمر التفتازاني ، الناشر دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولى ، سنة 1422هـ الموافق 2001م

١٣) مقدمة في نظرية البلاغة النبوية السياق و توجيه دلالة النص ، تأليف أ. د./ عيد بلبع، الطبعة الأولى 1429هـ 2008م بلنسية للطبع والنشر